

حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والعشرون

ميرزا أحمد عند الشاه

لما عاد ميرزا أحمد من عند الشاه فى مساء ذلك اليوم استدعاه فوجده مهتاجاً أشد الاحتياج .
ولما وصات إليه قال : « أدن منى ! أدن منى ! »
وقال لى همساً : « هل تعرف يا حاجى بابا أن هذا الطبيب اللعين قد عرف الطريق إلى جلالة الشاه وأنه كان معه فى صباح اليوم ؟ لقد تقابل معه دون أن أعلم وأنا للطبيب الخاص لجلالته . وظهر لى أن ثقة الشاه كبيرة به وأنه شكاً إليه من أمراضه القديمة المتعددة وهي فقر الدم والربو وعسر الهضم ؟ فسأله الطبيب أسئلة كثيرة جاءت كلها مطابقة للواقع فى وصف أعراض أمراضه مما جعل الشاه يعجب كل الإعجاب بدقته فى تشخيص المرض وبفزاره مادته .
ثم طلب أن يمهله لجلالته ثلاثة أيام يراجع فيها كتبه . واستدعاه الشاه فى المساء وسألنى عما أعرفه عن أطباء أوروبا وعن رأيي فيما يصفونه من الدواء فلم أنرد فى إخبار لجلالته برأى وهو أن هؤلاء القوم ليسوا أهلاً لثقتنا لأنهم يكذبون نبينا ويأتون المنكرات ولا يعرفون الطهارة من النجاسة ويشربون الخمر . وقلت لجلالته إنه إذا

أمكن اثباتهم على شيء فلا يجوز أن يؤتمنوا يا صاحب الجلالة على حياة الملوك الشرقيين . وانظر كيف فعلوا فى الهند وكيف أدلوا بحكامها . وإنى لأرجو يا جلالة الشاه أن يحفظك الله من شر دوائهم فانهم إنما يرسلون الأطباء لخدمة سياستهم »

ولحت له بأنهم يريدون قتله لاستعمار بلاده وأشرت إلى ما اشتهر من إجرائهم عمليات جراحية لحكام الهند وموت هؤلاء الحكام على أثر العمليات . وقد تمكنت من إقناع لجلالته بهذا القول فوعدنى بالأقبال منه دواء ولا يستشير فى أى مرض . وقال إنه سيدعونى إلى مقابلته عند ما يرسل إليه الطبيب الأجنبى الدواء لى أن أخبر لجلالته عن المواد التى تركب منها »

ثم قال لى ميرزا أحمد : « وبالرغم من هذا القول فأننى أعتقد يا حاجى بابا أن جلالة الشاه سيجرب دواء الطبيب الأجنبى وأنه سيجد له أحسن تأثير فكيف يثق بى بعد ذلك ؟ ومن الذى يأتى لى لى إذا طردنى الشاه ؟ »

فوعده بأن أفعل كل ما فى وسعى لمساعدته ضد هذا الطبيب الكافر

وبعد ثلاثة أيام دعى ميرزا أحمد مرة أخرى لمقابلة الشاه لفحص الدواء الذى قدمه الطبيب الأجنبى إلى لجلالته، فتكلم عنه كلاماً غامضاً ختمه بأن هذا الطبيب طبيب سفارة لدولة أجنبية وأن هذا يدل على أن واجبه واجب سياسى قبل كل شيء . واقتنع الشاه بأن يمرض الأمر على مجلس وزرائه .

الخاصة فذهب النديم وعاد يحمل الصندوق على طبق من الذهب

فنادى الشاه رئيس أطبائه وأمره بأن يدور به على الوزراء مبتدئاً برئيسهم ثم بمن يليه في الدرجة . ويقدم لكل منهم جزءاً منه ففعل ذلك وأخذ كل من الموجودين ما ليس به حاجة إليه من الدواء بمقدار الجرعة المادية التي يتعاملها لو كان مريضاً وأخذ جلالة يراقب وجه كل منهم ليمرّف الأثر الذي انطبع عليه وهو يتعامل الدواء ثم دار الحديث عن شئون أوردبا ، فسأل جلالة الموجودين أسئلة متعددة فأجاب به كل منهم جواباً أكثر ألفاظه في مدح الشاه والدعاء له

وفي هذه الأثناء أخذ تأثير الدواء يظهر شيئاً فشيئاً وكان أمرهم تأثراً وزير المالية الذي كان يفتح فيه ليتكلم بشيء فيعيبه الكلام وتظهر على وجهه علامة التعب الشديد فأجهت إليه كل الأنظار ثم ظهر الاصفرار الشديد على وجه أمين الملك وتلاه وزير الداخلية . وأخذت ترسم على عينيه علامة للتوسل والضراعة لكي يأذن له الشاه بترك المجلس وبعد قليل ظهرت علامات المرض على سائر الموجودين إلا رئيس الوزارة الذي أخذ يسخر في نفسه من آلامهم

ولما تبين للشاه تأثير الدواء في جميع وزرائه أمرهم بمغادرة القصر ثم التفت إلى رئيس الأطباء وطلب إليه أن يحدثه عن هذا الدواء فوجد الرجل هذه الفرصة سانحة وأخذ يصف الدواء بشر الأوصاف مرتكئاً إلى ما عاينه الشاه من تأثيره السيئ في وزرائه قال لي رئيس الأطباء بعد عودته من عند الشاه : « لقد كان سلطاني كبيراً يا حاجي بابا على جلالة

وفي اليوم التالي عقد مجلس الوزراء كالمادة مجلس جلالة على العرش وجلس حوله الوزراء وهم على حسب النظام الحكومي في هذه البلاد : رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الداخلية وأمين الدولة وحاجب الملك ورئيس الحفلات ومدير المركبات الملكية ورئيس الأطباء ، ويليهم كبار القواد وبدأ الشاه خطابه بالتكلم مع رئيس الوزارة عن ذلك الطبيب الأجنبي الذي عرض خدماته على جلالة وقال إن هذا الطبيب حضر لليوم إلى القصر وقدم إليه دواء قال إنه لم يهتد إليه إلا بعد أن قضى ثلاثة أيام كاملة في مراجعة الكتب الطبية . وأكد أن هذا الدواء أقوى أثراً من كل حجاب وطمس .

وقال جلالة إنه استدعى رئيس أطبائه واستشاره في أمر هذا الدواء فأعرب له عن شكه وارتياحه لأنه لا يبعد أن يكون هذا الأجنبي مسخراً من قبل دولته الأجنبية لقضاء مآرب سياسي خصوصاً وهو طبيب سفارة .

قال جلالة الشاه وقد كان يرفع صوته أكثر مما تقضى به ضرورة إسماع الجميع : « وقد رأيت أمام هذه النصيحة أن أجمعكم وأستشيركم لتخبروني برأيكم ورأيت أن أول عمل يجب أن تعملوه هو أن يشاطي كل واحد منكم جزءاً من هذا الدواء ليحرب تأثيره في نفسه قبل أن يشير على برأى فيه » فتهتف رئيس الوزارة وسائر الوزراء بحياة جلالة وبدوام الصحة والمافية له وقالوا إنهم يمدون أنفسهم سمداً إذا ضحوا بأرواحهم من أجل جلالة .

عند ذلك أمر الشاه باحضار الدواء من غرفته

عاد الطبيب في اليوم التالي من القصر الملكي ويكاد وجهه ينطق فرحاً وسروراً وقال لي : « ما أكرم صاحب الجلالة وما أرق طباعه ! لقد قابلني اليوم بالبشر والحفاوة وأثنى على مواهبى ولعن الطبيب الأجنبي ودعاني إلى المشاء » فقلت : « ومن في البلاد الفارسية أكرم من جلالة الشاء ؟ ومن في أطباء العالم يضارع ميرزا أحمد ؟ إنهم إن أرادوا أن يستفيدوا علماً وحكمة فعليهم أن يأتوا يستعملوا منك »

عند ذلك بدت على وجه الطبيب المفرور ابتسامة الرضى . وأخذ يقتل شاريه ويمسح ذقنه وقلت له : « إن شاء الله جعل لي نصيباً من جاهك وشهرتك فاني بجانبك كقطعة من الحجر ملقاة بجانب الورد فمن الذى ينظر إليها ؟ »

قال لي الطبيب : « لماذا تتكلم بهذه اللهجة يا حاجى بابا ولماذا تبدى اليأس ؟ » فقلت له : « هل تأذن لي أن أقص عليك قصة تمثل حالى ؟ »

فلما أذن لي قلت : « كان هناك كلب يشبه في كل أحواله الدئاب حتى أن الدئاب أنفستها كانت تنخدع فيه وتأذن له بالبقاء في ذمرتها وكان يشاركها في قتل الخراف وأكل لحومها . ولكنه كان يصير مع الكلاب كلباً مثلها . ثم لاحظت الكلاب اختلاطه بالدئاب فنفرت منه . وأدركت الدئاب أنه كلب فصارت تخافه وتتقيه . ورأى الكلب أنه أصبح منفرداً مهجوراً فلا الكلاب تقبله في ذمرتها ولا الدئاب تسمح له بالبقاء بينها ، فعزم عزماً أكيذاً على أن يترك قلبه ويقرر واحدة من اثنتين فاما أن يصير كلباً وإما أن يصير ذئباً — أما أيها الطبيب مثل هذا الكلب فانك تسمح لي بأن أجلس معك وأدخن وآكل كأنك لست أعلى منى منزلة ، وأنت تستشيرنى وتركن

وسترى في الغد أن ذلك الطبيب الذى أراد أن يضحك منا سيتعلم الخوف بدلاً من السخرية . وسيعلم من نحن معاشر الفرس . لقد كان يريد عزلى من خدمة الشاء وأن يتولى علاجه بدلى . ولكن من لهذا الأحمق بمن يعلمه أننى خلقت لمعالجة الشاء وأن للشاء خلق لكى أعالجه . إنه يفاخر باختراعاته الحديثة ولكن ما فائدة هذه الاختراعات ؟ هل خلق الله أمراضاً حديثة ؟ إننا نمرض بما كان يمرض به آبائنا ونعالج بما كانوا يعالجون به وحسبنا ذلك . إننا لن نصف دواء لمرض غير ما كان يصفه ابن سينا لمرض في مثل حالته

ثم أخذ رئيس الأطباء يستوثق منى لأعينه في تدابير أخرى على منافسه الطبيب الكافر كيما تبقى له مكانته في القصر الملكي . ثم أمرنى بالانصراف بعد أن حدثنى بما ضاق به صدره

الفصل الثان والعشرون

مهاجى بابا يتخاضى راتباً من الطبيب

كنت إلى ذلك الوقت أعامل الطبيب الفارسى معاملة الصديق للصديق لا معاملة التابع للتعنوع ، وكان راضياً بهذه المعاملة لأنه كان يسمح لي بالجلوس أمامه وبأن آكل معه وأدخن ولكننى وجدت الاستمرار على هذه الخطة لا يتفق مع ما أرجوه من الكسب ولم أكن قد نلت من ماله غير القطعة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وكانت اللطواهر كلما تبدل على أنها آخر ما سأخذه منه وإن كانت أول ما أخذه ، فمزمت على أن أكلمه في الأمر فانهزت فرصة سروره لانتصاره على الطبيب الأجنبي وأخذت أثبت شكائى إليه

لقد صدق السعدى حين قال : « لا تشقوا بصداقة الملوك ولا بأصوات الأطفال ، فان صداقة الملك تتغير بين يوم ويوم ، وصوت الطفل يتغير بين ليلة وليلة » وهنا تنبه الرجل إلى أنه قال ما ليس ينبغى أن يقال . وغلب خوفه من أن يجلد على حزنه على ضياع الطومانات فسكت مقطباً

ووجدت أن الفرصة ليست سانحة لاستئناف الحديث الذى تتكلم فيه فأجلته إلى فرصة أخرى واكتفيت بالألا أكون كلباً ولا دئباً

الفصل الثالث والعشرون

هاجى بابا ياج

زاد سخطى على حاضرى وشكى فى مستقبلى ، وكانت أبى وليالى تنفضى بلا عمل ، ولم تبق بنفسى رغبة فى تعلم صناعة الطب ، ورأيت أملى فى ميرزا احمد يضمف شيئاً فشيئاً حتى عزمت على تركه لولا مصادفة لم تكن منتظرة أرجعتنى عن هذا العزم وكانت هذه المصادفة أننى رأيت فتاة فاستولى حبها على قلبى حتى صرت أعتقد أن « المجنون » فى أشد حالات جنونه لم يكن أكثر تعلقاً بليلاه منى بتلك الفتاة

مضى الربيع وجانب من فصل الصيف ودفعت الحرارة أكثر الناس إلى ترك مساكنهم فى داخل الدور وفرش السجاجيد فوق الأسطحة ليناموا عليها ؛ وكنت أكره أن أقضى الليل مع الخدم والطباخ ، وهم ينامون عادة بمرقة فى الدور الأرضى فنمت فى شرفة تطل على الجزء الداخلى من منزل الطبيب وهو الذى تقيم فيه السيدات كان الجزء الذى تطل عليه هذه الشرفة حديقة

إلى كائن واحد من أصدقائك . ولكن ليس فى أصدقائك من يكاد يقتله الجوع غيرى . ولست أستفيد من صداقتك كما تستفيد أنت منى ؛ فأرجوك إما أن تصرفنى عنك فلا تمود إلى طلبى ، وإما أن تجعل لى راتباً ؛ فان الشاعر عسكر خان قال لك عنى إني أريد عملاً أكتسب منه ولم يقل لى أريد صديقاً »

قال لى الطبيب : « أجعل لك راتباً ؟ أنا لم أعط راتباً قط لواحد من خدى ولكنهم يأخذون ما يستطيعون : خذ من المرضى الذين يأتون لى يادى كما يفعلون . ولكننى أعطى كل واحد من أتباعى ثوباً جديداً فى عيد النوروز فماذا تريد منى أكثر من ذلك ؟ »

وفى هذه اللحظة جاء رسول من قبل الملك يحمل هدية إلى الطبيب فوقف الطبيب وقفة الذى أصيب بالشلل وهتف بحياة الشاه . ثم أخرج من جيبه قرشين (القرش عند الفرس يماثل نصف ريال مصرى) وأعطاهما لحامل الهدية فرفض أن يأخذهما بمرزة وإباء ، ودفع طوماناتا فرفضه كذلك ، ولم يزل يزيد حتى عرض خمسة طومانات فقبلها وخرج غير شاكر لأن من حق الرسول الذى يحمل هدية أن يأخذ لنفسه مقداراً من المال قد يكون أكبر قيمة من الهدية نفسها

ولما ابتعد ذلك الرسول استولى الغضب على الطبيب فقال كلمات لو بلغت سمع الشاه لأذاقه الويل وكان مما قاله : « أهديت هذه ؟ إنها لا تليق بمرسلها ولا بمن أرسلت إليه . انظر يا أخى ماذا بعث به الشاه ! إنه بعث إلى بطبق من الطعام فن الذى أخبر جلالته أنى جائع ؟ إن قيمة الهدية لا تعدل فهل هذا ما دفعته لرسوله . جزاً ؟ هل هذه مكافأتى ؟

إن الحب ليس جريمة وإن عينيك سحرنا قلبي . بحق أمك التي حماتك ارفعى النقاب عن وجهك لأنظر إليه مرة أخرى »

قالت بلهجة أرق من الأولى وبصوت أعذب : لماذا تستحلفني على ذلك ؟ أليس من المحرم على السيدات أن يكشفن وجوههن أمام الرجال الأجانب ؟ إنك لست أباً ولا أخاً ولا زوجاً ولست أعرفك . ألا تخجل من مخاطبة أجنبية عنك ؟

وفي هذه اللحظة وقع نقابها كأنما كان وقوعه مصادفة ورأيت وجهها أجمل من قبل ، وكانت عيناها سوداوين واسمتين وأهدابها طويلة . وكان حاجباها مقوسين تقويساً بديعاً متصلين فوق الأنف اتصالاً مغريباً فائزاً .

وكان أنفها أفتى صغيراً ، وفها ضيقاً رقيق الشفتين عليها بتسامة عذبة ، وفي وسط ذفنها « غمازة » لطيفة ، ولم أر في حياتي شيئاً أجمل من شعرها الأسود وغداؤها الطويلة المنسدلة على ظهرها ، وقد كانت في الجملة مثالا للجمال والرفقة . وفهمت عند رؤيتها أشياء كثيرة كنت قد قرأتها ولكني لم أفهمها من قصائد الشعراء ، وعرفت أنني أستطيع أن أنظر إلى وجهها إلى الأبد دون أن أشعر بشيء من الملل . ولكن نشأ بنفسى شعور قوى يدفعني إلى تساق الجدار ولمس جسدها اللين ، وكدت أفضل ذلك لولا أن سمعت صوتاً يناديها باسم (زينب) وكان هذا الصوت عالياً حاداً كرره قائلة دلالة على فقدان صبره ، فذهبت ، وبقيت في مكانى مدة طويلة منتظراً عودتها ، وأصغيت على أسمع صوتها وهي تكلم من كان يناديها ، وقد ظهر لى أن هذا الصوت هو صوت زوجة الطبيب التي لم تكن من السيدات

حولها غرف تسكاد تكون منفصلة عن سائر المنزل يدعونها « مسكن الحرم » وكان مفروساً في هذه الحديقة أنواع الفاكهة والورد والياسمين ، وكان لأسف هذه الغرف حواف ممتدة تظلل جزءاً كالأطار حول هذه الحديقة ، وفي هذه الظلال كان يجلس من في المنزل من السيدات على سجاجيد فارسية بديعة الصنع مفروشة فوق إفريز خشبي مربع أمام أبواب الغرف وكنت قد رأيت عدداً من سيدات القصر ولكن ليس فيهن مثل التي رأيتها أخيراً ، ولو كنت أعرف أن فيهن مثلها لتجيت للنظر إلى مكانهن حتى لا أقع في حبال عينيها الساحرتين

وكان من سوء حظي أنهن رأينى وأنا أطل عليهن في اليوم الذى وقع نظري فيه على الفتاة فصرخن وزجرننى ولعنننى بأفصح الألقاب وأقساها ، ولكننى بعد هذه المرة لم أكف عن الاطلاع عليهن وصرت أكثر حذراً من أن يريننى كذلك وهن مجتمعات

وكانت الفتاة التي ملكت على قلبي مشاعره طويلة للشعر تنسدل على جبينها خصل منه وتخفى بعض وجهها في حين أن الأعين التي تراها شديدة الغما إلى التحلى بكل جزء من محاسنه

وكانت بداها صغيرتين مخضوبتين بالحناء وقدامها كذلك ، فقد رأيتها وهي في منزلها تمشى حافية . وظللت أنظر إليها حتى فقدت سيطرتى على نفسي لما استولى على من الإعجاب فتحركت حركة نهبتها فنظرت إلى ووضعت النقاب على وجهها فرأيت أجمل صورة يمكن أن يتصورها إنسان ثم قالت بلهجة رقيقة وأدب ناعم : « لماذا تنظر ؟ أليس هذا عيباً ؟ »

قلت : « أستحافك بحق الحسين ألا تطردبنى .

الوقت إلى أن يرزقني الله مالا فسامعت نفسي بلذات الحب، وإذا اقتضى الأمر تحمل غرم فليتحملة الطبيب بالنيابة عني .

وقبل الموعد لبست ثيابي وتأنقت أكثر من العادة ورجلت شمري بمنايا شديدة وأنقنت ربطة الحزام وأملت عمامتي إلى جانب رأسي وخرجت من البيت قاصداً الحمام .

وبعد الاستحمام تمطرت وقضيت جانباً كبيراً من وقتي في الغناء ومشيت في المدينة بلا قصد غير قطع الوقت حتى يحين الموعد

وأخيراً انتهى النهار وكان صبري يقل شيئاً فشيئاً، وكان من سوء حظي أن الطبيب تأخر عند الشاء، ومن أجل ذلك لم يتم الخدم مبكرين كما دهم فقد كانوا مضطرين إلى انتظاره حتى يفرغ من طعامه لكي يتعمشوا بفضلات مائدته . ولهذا السبب لم أستطع الذهاب إلى زينب في الموعد المحدد

ولما هدأت أنفاس الناعمين وسطع نور البدر ذهبت إلى النافذة وكان معين الصبر قد غاض . ولما استوثقت من أنه لن يراني أحد أطلت من النافذة فرأيت بها أوراق التبغ الخضراء وإلى جانبها سلة بها جزء مرتب من هذه الأوراق وسائرها غير مرتب في الغرفة فعرفت أن زينب كانت ترتبها ولكنها لم تتم عملها

درت بعيني في أرجاء الغرفة فلم أجدها الفناء وتنحنحت مرتين فلم أسمع جواباً ثم سمعت زوجة الطبيب تتكلم همساً ولكن حدة صوتها جعلته يخرق الحوائط ويصل إلى مسمعي، ولم أتبين في مبدأ الأمر موضوع الحديث ولكنني في النهاية سمعتها تقول بصوت واضح : أتتكمين عن الشغل يا بنت

الراقبات الرقيقات . وتمكنت من إخضاع زوجها لها كل الخضوع .

وانتهى النهار وكنت على وشك العودة إلى فراشي فسمعت صوت تلك الزوجة ينادي : « يا زينب يا زينب ! إلى أين تذهبين ؟ لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟ »

ثم سمعت صوت الفتاة يجيبها، ورأيتها بعد ذلك تدخل الغرفة التي كانت بها في أثناء النهار ولكنها لسوء الحظ لم تتمكن طويلاً حتى أمتع عيني برؤيتها بل أخذت سلة كان فيها بعض الفواكه التي جمعتها من الحديقة وخرجت من الغرفة وقالت لي بصوت خافت وهي تغادر الغرفة : « تعال في مساء الغد » فجرت عذوبة صوتها في دمائي وشمرت بإحساس لم أشعر به من قبل واهتزت أو صالي كما تهتز أو صال المحموم، وذهبت بعد ذلك إلى فراشي فساورتني الحلى إلى أن طالتني الشمس في الصباح

الفصل الرابع والعشرون

هاجى بابا يغافل زينب

عرفت في النهاية أنني وقعت في حبال الحب وقلت في نفسي : « سأعرف الليلة من هي التي أحبها، وإذا كانت من أسرة الطبيب فليهدم منزله على رأسه إذا أنا لم أعلم كيف يكون شديد الرقابة على أهل ذلك المنزل

أما من حيث زواجي بها فإن ذلك أمراً لا يخطر بالبال . ومن ذا الذي يرضى أن يزوجني ؟ إنني لأملك ما أشتري به حذاء فكيف أحصل على تكاليف الزواج ؟ ولكن إن شاء الله فساأصبح قادراً على الزواج في يوم من الأيام . ومن هذا

« أما كردية من اليزيديين والناس يزعمون أننا نعبد الشيطان ، ولكن الحقيقة ليست كذلك وإنما نحن نخاف الشيطان ، وأى إنسان لا يخافه ؟ إننى أود أن أرى تلك السيدة بين الجبال لكي أريها ماذا تستطيع الفتاة الكردية أن تفعل »

حاولت بكل قوتي أن أعزيبها وأن أقنعها بالعبر حتى تنهى لها فرصة للانتقام ، فقالت لى إنها يائسة من سنوح الفرصة لأنها مراقبة أشد المراقبة وأنها لا تكاد تنتقل من غرفة إلى أخرى إلا باذن سيدتها وقالت لى : إن هذه السيدة كانت من جوارى

الشاہ وإن الطبيب تزوجها بأمر من جلالتہ واضطر بتأثيرها إلى ترك زوجته الأولى ، وأن هذا الطبيب من أسرة وضيعة وأنه يعاني آلاماً شديدة من سوء أخلاقها وشدة كبريائها كأنما كانت تمد نفسها في ماضيها سيدة من سيدات القصر الملكي لا جارية من جواريه ، وأنها لا تفرق في المعاملة بين زوجها وبين الحيوان وتطالبه بالخضوع والتسليم في كل شيء . وأن الطبيب لا يجرؤ على الجلوس أمامها حتى تأذن له ، وهى فضلاء عن ذلك شديدة الغيرة ترتاب في علاقة زوجها بكل جارية ، وأن الطبيب يفاضل زوجته ويسأمر الضمف الانسانى فيقضى وطره من كل خادمة جميلة

وقالت لى رينب إنها هى نفسها موضع حبه وإعجابہ وإن سيدتها لذلك تنافر منها ولا تتركها تتحرك أقل حركة دون أن تراقبها أشد المراقبة ، وقالت لى إن جو للبيوت التى وصفها كهذا الوصف جو دسائس

ولما كنت لا أعرف من نظام البيوت الفارسية إلا ما علق بذهنى من ذكريات منزلى وقد فارقتہ وأنا صغير — فقد كنت أصغى إلى الفتاة في اهتمام

الشيطان ؟ لماذا ذهبت إلى الحمام ؟ أى شأن لك في المقابر ؟ لماذا لم يتم عملك ؟ لانا كل ليلة ولا تشربى ولا تنأى حتى يتم . إذهبى في الحال وإذا لم تتمميه فوالله وبالله لأضربك على قدميك حتى تسقط أظافرك »

وبعد ذلك سمعت صوت لطبات فمرفت أن زوجة الطبيب هى التى كانت تكلمها . وبعد قليل رأيت فانتنى تدخل الغرفة مطرفة مكسورة الخاطر . ولقد كنت أتمنى أن أراها في هذه اللحظة في أسعد الحالات وأرغدها

قلت في نفسى : « ما أعجب الحب ! إنه يشحن الدهن ويقوى الدماء . ونظارت في الغرفة فأدركت أن بها مكاناً أستطيع الاختباء فيه ومساعدتها في العمل حتى يتم وأستطيع أن أفضى الليلة معها دون أن يشمر بنا أحد . ورأيتى الفتاة مغطلاً من النافذة فلم تظهر أنها اهتمت حتى تبدأ للمصافة التى أثارها السيدة . ثم لما ساد السكون بعد مدة دنت من النافذة ، وبعد لحظة كنت معها في داخل الغرفة ولست أشك في أن الذين جربوا الحب من القراء يقدرون اضطرابنا في هذا الموقف الذى لا يمكن وصفه

وعلمت من فتاتى أنها بنت زعيم من زعماء الأكراد وأن أباهما سجن وهى لا تزال طفلة وأن سوء حظها جعلها جارية في هذا المنزل . وبعد أن تبادلنا وصف ما يشمر به كلانا نحو الآخر أخذت تبثنى ما تجده من سوء معاملة السيدة ، وقالت لى إنها تشمر بأنها في هذا المنزل أذل من الكلب ، فكل إنسان يسخر بها حتى ماتت نفسها ، وأن الاسم الوحيد الذى تنادى به بينهم هو بنت الشيطان . وقالت :

شيرين تدبر لي مكيدة عظيمة ولذلك أحتاط كل الاحتياط من كل ماء أو طعام أعرف أن يدها امتدت إليه خوفاً من أن تضع لي السم فيه . وقد أرادت أن تبدأني بأشرف هذا الصباح فقال لي : « لمنة الله على الشيطان » وهذه العبارة إهانة عظيمة لليزيديين ففضيت وأمسكت بشعرها فانزعجت خصلة منه ، وأخذنا نشتائم حتى جفت حلوقنا ولست أعرف ماذا تكون نتيجة هذا الشجار عند ما يعلم سيدي الطبيب »

استمرت زينب تمدني هذا الحديث حتى انبلج الفجر وسمعت صوت المؤذن فاستعددت للخروج وانمنا على أن نتقابل كلما سئمت فرصة وجعلنا العلامة بيننا على إمكان المقاتلة أن تعلق قطعة من القماش على شجرة فأعرف أنها مستعدة لمقابلي

الفصل الخامس والعشرون

المحبة به يلتقيانه مرة أخرى

في مساء اليوم التالي ذهبت إلى الشرفة وأطلت على حديقة الحرم آملاً أن أرى قطعة قماش معلقة على شجرة ، فلم أرها ولم أسمع صوت زوجة الطبيب ذلك الصوت الذي أصبحت أتفاهل به . ولم أجد في الغرفة سلة التبغ ولم يكن في المنزل علامة على أنه مأهول غير وجود ليلى

وبقيت في مكاني حتى دق الجنود طبولهم ليلقوا الباعة حوائثهم وينصرفوا إلى منازلهم . وكان للصمت سائداً في كل مكان

قلت في نفسي : « لا أظن أن سيدات المنزل في الحمام لأن الساعة كانت متأخرة فلملهن في حفلة زواج أو عند أسرة يكون أحد أفرادها صريخاً ، وصرت أعصر ذهني لأفترض الفروض حتى سممت فجأة صوت الباب يفتح ، وتلت هذا الصوت أصوات

شديد ، وكان مما قالته أن الحرم في هذا المنزل يتكون من خمس سيدات غير زوجة الطبيب وهن : شيرين الرقيقة الشركسية ، ونور جيهان (نور العالم) الرقيقة الحبشية ، وفاطمة جارية المطبخ ، وليلى خادمة الايوان ، وزينب وصيفة السيدة ، واسم هذه السيدة هانم وعمل الوصيفة أن تصنع لها القهوة وتمد النرجيلة وتذهب معها إلى الحمام وتساعد على لبس الثياب ؛ وأما شيرين الشركسية فهي أمينة المنزل وهي تعني بثياب السيد والسيدة وسائر الأتباع وتحفظ حاجة المنزل في العام من القمح وسائر المؤونة وفي عهدتها نفقات المطبخ وأدوات الزينة

أما نور جيهان فهي فراشة البيت وهي تنظف السجاجيد وتكنس السلم وتساعد الطباخة وتحمل الطعام وتفعل ما يأمر بها كل من في المنزل أما ليلى فإنها مجوز تشتري ما يلزم من السوق وتحمل رسائل السيدة إلى صواحبها وتنجس لها على السيد

قالت زينب : « ونحن نقضى أيامنا في الخلاف بيننا على كل شيء ، وكل اثنتين منا تتحالفان على الأخريات . والحسومة الآن شديدة بيني وبين الشركسية لأنها وجدت في العهد الأخير عناية السيد تنصرف عنها إلى ، ويظهر أنها تدس لي الدسائس عند السيدة لأنني أجد السيدة كلما أساءت إلى أحسنت إليها ، وهذه الفتاة شديدة الغيرة مني وقد أحضرت في العهد الأخير حجاباً من أحد الهداويش . ولما رأيت حسن تأثير الحجاب أحضرت حجاباً من درويش آخر لكي يرزقني الله زوجاً صالحاً . ولم أكد أحمل هذا الحجاب يومين حتى رأيتك تطل على من النافذة ففكرت أن الله قد استجاب دعوتي . وأنا الآن على اتفاق مع نور جيهان الحبشية وقد أخبرتني بأن

نصائية فعزمت على البقاء لئلي أنعم منها بمحدث مثل
حديث الأوس

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت زينب ومشت
نحوى على أطراف الأنامل لتخبرنى أن الظروف
لا تسمح بمقابلتها الليلة ولكنها ستنتهز فرصة قريبة
لتدعونى إلى مقابلة أخرى ، وأخبرتني أن سيدتها
ذهبت إلى القصر الملكي بأمر من الشاه لتعنى بسيدة
مریضة فيه ، وأن المظنون فى مرضها أنه نتيجة
للسم لها فى الطعام من سيدة أخرى فى القصر
وقالت لى زينب : « إنه لا ينتظر أن تعيش تلك
السيدة ولذلك فنحن نستعد لاقامة المآتم وسنهدى
إلى كل واحدة مناثياب ومناديل سوداء » ثم ودعتنى
وأكدت على ألا أنسى العلامة المتفق عليها بيننا

وفى الصباح التالى وجدت زينب تنظر من البافذة
وتشير إلى بالذو منها فدنوت غير متردد ودخلت
غرفتها كادخات فى المرة السالفة وقد تملكى الخوف
فى هذه المرة ، وكدت أم بالعودة لولا تشجيع الفتاة
لى بابنسامه ، وقالت لى : « لا تخش يا حاجى بابا فليس
هنا أحد غير حبيبتيك زينب وإذا لم يعاكسنا الحظ
فسنبقى معاً طول النهار »

فقلت : « ولكن ما هذه المصادفة العجيبة ، أين
سائر السيدات وأين الطبيب ؟ »

قالت : « لا تخش شيئاً فاني أغلقت جميع
الأبواب وإذا جاء أحد فسيكون لديك متسع من
الوقت للفرار قبل أن أفتح له الباب وقد ذهب جميع
السيدات إلى المآتم ، وقد دبرت السيدة الشديدة الغيرة
أمرأ لا يصاد الطبيب حتى لا يأتى إلى المنزل فى
غيبتها وأنا موجودة فيه »

وقالت : « يجب أن تفهم يا حاجى بابا أن نجم
حظنا من أسعد النجوم وأن الساعة التى التقينا

فيها كانت ساعة مباركة . وقد خدمتى شيرين
الشركسية من حيث لا تعرف لأنها أرادت منى
من دخول القصر الملكي حتى لا أعال المنحة التى
بمطونها فى العادة لمن يحضر المآتم من الناديات ،
فأفهمت السيدة أنى لا أحسن للندب وأنه لا فائدة
من وجودى فى المآتم . وأننى فضلاً عن ذلك
لا أعرف عوائد الايرانيين لأنى كردية فوجودى
فى الأوساط الراقية يجهلى وسيدتى منتقدتين .

وأفهمتها أن لىلى خير من تقوم بواجبها فى المآتم
فحثتها على مرافقتها . وعلى هذا ذهب الجميع إلى المآتم
وبقيت وحدى فى المنزل لحسن حظى حتى أتمكن
من رؤيتك . ولكننى تظاهرت بالنضب وعارضت
فى ذهاب لىلى من حيث كان الواجب أن أذهب «
ثم خرجت زينب لتعدلى طعام الاطفار وتركنى
أهتدى بنفسى إلى داخلية الحرم فذهبت أولاً إلى
غرفة « الهام » ووجدتها غرفة واسعة وقد غطي
بابها الذى على الحديقة بستار رقيق وفى صدرها
نمرقة عليها سجادة سمیكة مطوية طيتين ، ونحت هذه
النمرقة وسادة مربعة عالية مغطاة بالحرير المزركش
بالذهب ، وبالقرب من النمرقة صرأة فى إطار مزركش
وأمامها أدوات الزينة من المكحلة إلى المرود إلى
الخضاب والمقص وغير ذلك ، وبين هذه الأشياء
إناء صغير به أحجية متعددة .

وفى جانب من الغرفة سرير عليه ملاءة زرقاء
وعلى الحوائط صور كثيرة فى إطارات مختلفة
الأشكال والألوان وفى أحد الأركان زجاجة كبيرة
من النبيذ الشيرازى

قلت فى نفسى : « كيف يدعى هذا الطبيب
الصلاح والنقوى مع وجود الحجر فى منزله ؟ »
وعزمت أن أأخذ هذا الميب الذى عرفته عنه

الفصل السادس والعشرون

نصه زينب الكردية

قالت : « أنا بنت زعيم كردى يدعى أوخوس
أنا ولست أعرف من هي أمى ولكننى نشأت في
منزل أبى بين نساء كثيرات لم تشعرن واحدة منهن
بمطف خاص يدل على أنها الأم . ولكننى لما كبرت
سمعت أن أمى كانت غريبة وأنها ماتت في صغرى
وكان أبى مولماً بالخليل حتى أن أول شئ أذكره
في طفولتى هو موت مهرله وإقامته مأعاً له

وأنت تعرف أن الأكراد لا يعترفون بأية سلطة
أو سيادة عليهم ، وقد كان أبى كسائر الأكراد
لا يحترم الدولة العثمانية ، ولذلك اغتصب قطعة كبيرة
من الأرض مملوكة لباشا بغداد وجعلها مرعى لمواشيه
وغنمه ؛ وكان يكلف القبائل المجاورة أن تقدم لمواشيه
المؤونة فكانت تخضع مكرهة خوفاً من سطوته
وإحراقه زرعها أو تسميمه المواشى

وكان الباشا يتقى شره ، فبدلاً من أن يمنعه
أو يحاربه كان يتودد إليه ويرسل إليه الهدايا ويتفاخى
عن كل إساءاته

وكان أبى طويل القامة عريض الكتفين تبعث
هيئته على الهيبة والخوف ، وقد قتل أشخاصاً عديدين
ومن أجل ذلك كان يملق خصلاً كثيرة من الشعر
على أعلى رجمه لأن من عادة الفرسان التركانيين أن
يقطع أحدهم خصلة من شعر كل قتيل يقتله فيملأها على
رجمه وأما إن نسيت شيئاً فلمت أنسى الجلالة والمظلمة
المرتسمتين على وجهه عندما يكون ممتطياً جواده بين
ألف من أتباعه الخاضعين له أتم الخضوع والدين تنوّهج
أسنهم وسيوفهم في ضوء الشمس كلما هموا بفزوة
وكان أبى رجلاً بقدر الأمور حق قدرها ،
ويعمد إلى الحكمة بالرغم من استطاعته تنفيذ كل

سلاحاً أحاربه به عند الضرورة

وقبل أن أعاين سائر الغرف عادت زينب بطعام
الافطار واختارنا غرفة السيدة مكاناً لتناول طعامنا .
ولم أتناول قط في حياتى أحد من هذا الطعام وهو
مكون من طبق من الأرز ولحم مشوى وقاوونة فارسية
مقسمة إلى أجزاء مستطيلة كنا نتبلغ بها في أثناء
الطعام كمادة الفارسيين ، وطبق من المعجزة وآخر من
الجبن ، وخوخ ومشمش وأنواع من الحلوى والمسل
قالت لها : « خبرنى بحق أمك عليك كيف
تمكنت من إعداد هذا كله في هذه المدة اليسيرة ؟
إن الطعام يصلح لمائدة الشاه »

فقلت : « لا تظن أنى أحضرت ذلك الآن
فإن السيدة أمرت قبل ذهابها بإعداد الطعام فأعد
هذا الافطار ثم غيرت رأيها وفضلت أن تأكل في
بيت الشاه فتركته »

فأكلنا ما طاب لنا وتركنا قليلاً لمن عسى أن
يسأل عنه من خدم المنزل . وبعد أن غسلنا أيدينا
جاءت زينب بزجاجة النبيذ وكسرنا كأساً ليكون
ذلك عهداً بيننا على دوام الحب وهنا كل منا الآخر
بأنه أصبح أسعد الناس . واستولت على نشوة الحب
فرقت عقيرتى وغنيت أحياناً رقيقة من شعر حافظ
الشيرازى فأقسمت لى زينب وهى منتشية نشوتين
أنها لم تسمع قط صوتاً أطرب من صوتى . ونسيت
لشدة سرورها أنها ليست إلا جارية رقيقة ، ونسيت
لشدة سرورى أننى فقير ، وصورت لها الخمر كما
صورت لى أن سعادتنا دأعة أبدية ، وغنت ثم غنيت
كل منا بدوره والخمر فضاحة الأسرار كما يقولون
فطلبت إلى زينب أن تقص على تاريخها فلم تمتنع
هما طلبت وأخذت تقص على قصتها منذ البداية .

هؤلاء الضيوف جالسين في صدر الخيمة وأبي أمامهم
جالس جلسة تدل على إكبارهم وتواضعهم في حضرته
قال أبي: «مرحباً بك يا أسعدتمونا بتشريفكم»
فقال الرياخور: «لقد كان من حسن حظي
أنني انتدبت لمقابلتك فاني مشتاق إليك وقد مضى
زمن طويل على آخر مرة تلاقينا فيها»
وأخذوا يتبادلان مثل هذه التحايا وكان كل من
بالخيمة يدخلون في هذه الأثناء حتى امتلأت
الخيمة بالدخان

ثم قال الرياخور: «إن مولاي الباشا أرسلني
إليك لأبلغك تحيته وأقول لك إنه يحبك وبقدرك
وإنه يمدك من أقدم أصدقائه وإنه يحب الأكراد
ويصادق أصدقائهم ويمادي أعدائهم»

فقال أبي: «أبلغ الباشا أنني لست إلا عبداً من
عبيده، وأنه قد سرفني أكثر مما أستحق، وإنني أحمد الله
على المودة التي عقدت بيني وبينكم. إننا نعيش في أمن
مستظللين بظل الباشا وقد أصبحنا لا نعرف الخوف»
وبعد لحظة ساد فيها السكوت قال الرياخور:

«الغرض من زيارتنا يا أخوخوس أغا هو إبلاغك
أن الوهابيين أرسلوا إلى الباشا يطالبونه برد الجواد
الذي كان يركبه زعيمهم الذي قتل في الحرب وأنهم
لا يقبلون فداء غير رأس الباشا أو ابنه لأنهم يزعمون
أن هذا الجواد من نسل الجواد الذي هاجر به للنبي من
مكة إلى المدينة. وقد قال رسل الوهابيين إنهم جمعوا
جيشاً وسيحاربون حتى نرد إليهم جوادهم أو يهلكوا
عن بكرة أبيهم. ويقول لك الباشا إن الناس كلهم علموا
بوجود هذا الجواد عندك وإنه يريد أن يرد لهم الجواد
ومن أجل ذلك أرسلني إليك راجياً أن تسلمه إلي»

فقال أبي: «والله وبالله وبحق الخبز والملح الذي
أكلته مع الباشا لقد كذب الوهابيون وليس عندي
الجواد الذي يريدونه، وكل ما في الأمر أنني غنمت

الذي يريد به بالقوة. ومن أجل ذلك لم يزد صداقة
الباشا بل أراد الانتفاع بها. كذلك كان الباشا
حكيماً فلم تخف عليه هذه الرغبة عند أبي وصار يستعين
به في تأديب القبائل

وحدث في ذلك الوقت أن جماعة من الوهابيين
ثاروا على الحدود فاستعان الباشا بأبي على تأديبهم
واشتركت جيوش الحكومة مع جيش الأكراد
في هذه الحملة، وقد تمكن أبي من قتل الزعيم الوهابي
بيده في أثناء المعركة

وأخذ أبي جواد الزعيم الوهابي فأرسله إلى
ممسكر الأكراد، ولقد كان هذا الجواد عربياً
أصيلاً يحسد مالكة عليه، ولو علم الباشا به ما تركه
لأبي بأي حال من الأحوال

وأخيراً تقهقر جيش الوهابيين المغلوب وعاد
الأكراد إلى الجبال، وفي يوم من الأيام فوجئنا بزيارة
مندوب من قبل الباشا ومعه عشرة من الجنود
مدججون بالسلاح. وكان هذا المندوب هو الرياخور
فأكرمه أبي وأدى له جنودنا التحية ثم أخذت جياد
المندوبين إلى المرعى وذبحت الدبائح وقدم لهم الطعام.
وبالجملة فقد بذلنا كل ما نستطيع بذله من واجب
الضيافة أناس مثلنا من الرجل القاطنين في الخيام
وقد أدرك أبي منذ رأى ضيوفه مقبلين كنه
المهمة التي جاءوا من أجلها، وأمر ابنه بأن يأخذ
الجواد الذي كان للزعيم الوهابي إلى جهة مجاورة
حتى يصدر إليه أمر آخر

ولما كانت جهاتنا جبلية فقد كان من السهل على
أي رجل أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن
يشعر به الموجودون معه. وإنني لأذكر الحوادث
التي سأذكرها لك كما لو كانت حدثت بالأمس فقط
كنت أطل على المكان الذي اجتمع فيه الرياخور
وأبي واثنان من الأتراك الموفدين من قبل الباشا، وكان

دقائق حتى نفد الطعام لأن الجميع كانوا يأكلون بشهوة قوية . ثم جرى بقصة من الأرز فاتهموها بأصابعهم وقال كل منهم : « الله بركات فارس » أي أسأل الله أن يديم نعمائه

ثم خرج أبي مع الرياخور من الخيمة وتكلم بصوت خافت ولكن لفرهما من الخيمة التي كنت أما فيها ولا نصافي الشديد تمكنت من سماع ما دار بينهما من الحديث

قال أبي : « إن كل ما أستطيع أن أدفعه لك هو عشرة جنهات وبالبني كنت أملك أكثر من ذلك » فقال الرياخور : « هذا مستحيل وأنت تعرف ماذا سيكون إذا لم تدفع لي نصف هذا المبلغ . إن الباشا سيأمرني بالموءة للقبض عليك لعدم حصولي على الجواد . بل هو قد أمرني بالآ أعود إلا بالجواد أو بك ، ولكن إذا دفعه لي عشرين جنهات فأنني سأسهل الأمر عليك وأنجيك . فاختر يا صاحبي لنفسك ما تراه »

فأخرج أبي كيس النقود من حزامه ودفع له عشرين جنهات فأخذها الرياخور وأظهر علامة الرضى وقال لأبي : « لقد أكلنا الآن خبزاً وملحاً فنحن أصدقاء ووجب علي أن أتدخل إذا أراد الباشا سوءاً بك ولكنني أشير عليك بأن ترسل إليه هدية وإلا صعب على التوسط عنده »

فقال أبي : « أهدي إليه هدية تليق به على العين والرأس فان لي كلباً ذاعت شهرته في كردستان بلحق بالوعل السريع ويندر وجود مثله عند الملوك فهل يقبل هذه الهدية ؟ »

فقال : « إنها تليق من وجهة واحدة ولكنها لا تكفي إذ يجب أن تذكر ما ينشأ عن رضى الباشا »

فأجاب أبي : « إذن لقد خطر ببالى خاطر هو أن أرسل إليه بنتي ذات الوجه المشرق الوضاء

جواداً مريضاً غير أسبل فبعمته لأحد الأعراب في اليوم التالي لحدوث الموقعة ولا يزال عندي سرج هذا الجواد ولجامه ، وأنا مستعد لاعطائهما لك . أما الجواد نفسه فليس عندي »

قال الرياخور : « الله الله ! هذا أمر كبير الأهمية يا أوخوس أغا وأنت رجل محترم ونحن أناس محترمون فلا تحاول الضحك على ذقوننا ، وإذا لم تأت بالجواد انزده إليهم فانهم سيحاربوننا حرباً تموت فيها كل حيادنا وستنتهي الصداقة التي بينك وبين الباشا فاستحلفك برأس أبيك أن تأتى بالجواد ولا تعرضنا ونفسك للحرب مهلكة »

قال أبي : « أيها الصديق ما الذي أقوله لك ؟ إن الجواد ليس عندي ، وإن الوهابيين كاذبون ، ولم أقل لك غير الصدق »

ثم دنا من الرياخور وأخذ يتكلم معه همساً فلم أسمع حديثهما ولكنني وجدتاهما متفقين في نهاية هذا الحديث وقال الرياخور بصوت عال : « إذا كان الأمر كذلك ولم يكن الجواد لديك فان الله كريم والمرء لا يستطيع أن يغالب الأقدار وعلينا أن نعود إلى بغداد »

وقف أبي ثم خرج تاركاً ضيوفه يدخلون ويشربون القهوة . وجاء إلى خيمة السيدات فأمر بالطعام الذي كان يمد في ذلك الوقت لضيوفه وأخذ من إحدى نساءه كيساً فيه نقود ذهبية فوضعه في حزامه ثم عاد إلى ضيوفه

ولم يدر حديث طويل في وقت الغداء ولكنهم كانوا يتكلمون قليلاً عن الخيول والكلاب والأسلحة وكان الطعام طبقاً كبيراً من الحساء وقصعة بها أرز وثريد وحمل مشوى . وكان عدد الجالسين على المائدة خمسة عشر وهم رئيس الوفد للتركي وأتباعه المشرة وأبي وثلاثة من أتباعه وكان في يد كل منهم ملعقة خشبية ، وما هي غير

حبه المال أكبر من حب سواء ، وعددنا الآن لا يستطيع الثبات طويلاً أمام جنوده خصوصاً وأن معنا نساء وأطفالاً نحب علينا حمايتهم فأنصح لكم بترك هذه المقاطعة التركية والسفر إلى فارس حيث نجد المرعى خصيباً والناس مسالمين »

فقال عم أبي : « إسمع يا أوخوس أغا ! إسمع يا ابن أخي ! أنت رأس هذه القبيلة وأنت أشجع رجالاتنا ، وإذا نصحت لك بأن تسلم لهم جواد الوهابيين احتقرتني وقلت إنني غير جدير بأن أكون كروباً أو يزيدياً . وإذا أسلته الآن إليهم بمردد رسولهم فإننا لن نخلص من نية الانتقام لأنني جربت حكام الأتراك وعرفت أنهم لا ينتهون عن الانتقام متى سنحت فرصة لذلك ، فأنا أرى رأيك في الرحيل عن هذه البلاد التي لم يعد يحسن بنا البقاء فيها وقد تمودت منذ صباي أن أرى هذه البقاع وعزيز علي أن أفارقتها ، ولكن ذلك لا يصلح عذراً للبقاء الذي قد يكون فيه هلاك القبيلة ، وأرى ما دمنا عازمين على الرحيل أن نمجّل به لأن التأخير شديد الخطر ولأنه قد لا يمر يومان أو ثلاثة أيام قبل أن يأتي جنود الباشا ليناروا منا ، وقد يأتي الوقت الذي تمودون فيه إلى أما كنكم للقديعة »

ولما فرغ عم أبي من الكلام قال أكبر الرعاة سنّا وهو شيخ مجرب يعرف طرق البلاد معرفة جيدة : « إذا كنا ذاهبين فلنذهب في الحال فإن الثلوج التي على قمم الجبال قد أوشكت تذوب ولن نستطيع إذا تغير الفصل أن ننقل بأغنامنا ومواشينا ولم يبق إلا ثلاثة أسابيع ثم تدخل الشمس في برج الحمل » قال أبي : « لقد صدق شيخ الرعاة » ثم انفت إليه وقال : « لقد أحسنت النصيحة ، وأنت خادم أمين وسأجزيك جزاء حسنًا متى اهتمدنا عن متناول يد الباشا »

وللقوام الأهيف البصر والخصر الذجيل ، التهاب قلوبها بحرارة الشباب ، فقل له ولو أنه يرى أن اليزيديين غير مؤمنين إلا أنه قد يهوى امتلاك جميلة تغار منها حور الجنة ، وأنا على استعداد لأرسالها معك » فصفق الرياخور بيديه من فرط سروره وقال : « عفارم عفارم لقد أصبت وأحسنّت وسأعرض الهبة وسيقبأها ولا شك وسيكون لك منها صدق في قصر الباشا تعتمد عليه وينجّدك في الأزمات ويقيك شر ما تخاف »

وعلى ذلك اتفقا . وأما أنا فقد تركت مكاني الذي كنت أنصت منه لأفكر فيما سيكون من مصيري ، وقد ملت أولاً إلى البكاء وندبت سوء حظي . ولكنني بعد قليل من التأمل والتفكير قلت : « هل أكون زوجة الباشا؟ هل ألبس الحرير وأحمل في المحفات؟ إن سروري بذلك لا يقدر وسيغبطني كل بنات الجبال » وبعد قليل من الزمن كنت أنظر من الخيام إلى الفضاء الفسيح فأرى الرياخور في أحسن حالة ومعه أتباعه وكتبه وهم يسرون إزاء سلسلة التلال التي تحيط بمسكننا ، وسمعت والدي يبدى شكره وامتنانه لأنه تخلص من هؤلاء الزائرين . ولما غاب القوم عن النظر أرسل والدي أحد رعاة غنمه إلى ابنه بالجبل يأمره بإرجاع الجواد . ولما أمن على الجواد في الخيام جمع رجال قبيلته المسنين من أقاربه وأقرباء زبجته والنازلين بجوادنا وشرح لهم الحالة التي أصبح فيها ، وبين لهم أن هلاكهم وهلاكهم محتان إن هم ظلوا في أملاك الباشا . فمقدوا مجلساً ناطوا رباسته بمعنى وهو أكبر رجال القبيلة

قال أبي : « تعلمون أن جميع المسلمين يكرهوننا نحن اليزيديين وقد كان الباشا يدعي صداقتنا ليأمن شرنا ولكي يستفيد من تسخيرنا ضد أعدائه ولكن

تقضي بأن تؤوي إحداها كل قبيلة تلجأ إليها فراراً
من الدولة الأخرى

وأخيراً عاد أبي ومعه ضابط من ضباط الأمير
وأقطعنا أرضاً على بعد عشرة فراسخ وهي واسعة
نقطعها سيراً في ثلاثة أيام ، وفي جانب منها جبال
عزمتنا على الإقامة فيها شتاء ، وأما الجانب الآخر
فعرزمتنا على جملة مصيفاً

وكان اسم أبي مشهوراً في كرمان شاه ، فلما
استأذن على الأمير ليقابله أعرب سموه عن السرور
بهذه المقابلة وخلع عليه خلمة سنية ووعده بمهايته
وقال له : « إذا طلب للبasha تسليمك أو تسليم أى
رجل من قبيلتك فأنى لا أردد في رفض طلبه حتى
ولو أدى إلى إشتهار الحرب عليه . إن أرض الله
واسعة يا أوخوس أغا فاذا ضاق بك الأتراك ذرعاً
فان بلادنا وسدورنا واسعة رحبة »

وقد كان ما توقعه الأمير ، فلم تحض إلا أيام قليلة
حتى جاء إلى المدينة رسول من قبل البasha يحمل
خطاباً موقفاً عليه منه ، وهو في هذا الخطاب يطلب
تسليمنا ويذكر الأسباب التي أدت إلى جلائنا عن
بلادنا . وقد اتهم أبي في هذا الخطاب بأنه لص وبأنه
سرق جواداً من أنفس الحيات ، وهدد البasha في آخر
الخطاب بأنه إذا لم يصله الجواد على الأقل فإن الحكومة
الفارسية ستكون مسئولة عن النتائج

ولما وصل هذا الخطاب إلى الأمير استدعى أبي
وعرفنا أن البasha لن يترك جهداً في الحصول على
الجواد والانتقام من أبي مهما كلفه ذلك . وخشينا
أن يسلمنا الفرس بالرغم من وعد الأمير ، لأننا زيديون
والمسلمون جميعاً يكرهوننا ، ولكن الفارسيين أشد
كرهاً لنا وتمسباً علينا

وقبل أن يذهب أبي لمقابلة الأمير أصدر أوامراً
سرية بأن يوضع الجواد في مكان أمين وبأن ينكر

وعلى أثر هذا الاجتماع رفعت الخيام وحملت على
ظهور الجياد والجمال ، ومشى الرعيان بالغنم وركب
أبي الجواد الذي غنمه من الوهايين

وكان للنساء يكنين وينتجنن لأنهن لم يفهمن
الأمر على حقيقته بل اعتقدن أن جنود البasha على
قارب قوسين منا وأنه لم يبق إلا يوم أو بعض يوم ثم
يصبحن أسيرات في بيوت الأتراك »

قالت لي زينب : « أما أنا فقد كان لخوفي سبب
آخر هو يأمى مما كنت أعلل به نفسي بمد أن سمعت
حديث أبي مع الرياخور فقد كنت أعتقد أنى
سأصبح زوجة للبasha

رأيت أحلامى تبددت دفعة واحدة فلا أمل لي
في لبس الثياب الحريرية المزركشة ولا في سكنى
القصور العالية المفروشة بالأنامات النالى ولا في التمتع
بالسيادة على الجوارى والخدم ولم يبق أمامى أى شيء
غير ما كنت فيه من حلب للضرع وصنع الحبن والزبد
تحرك ركبتنا وكان الطريق أمامنا مملوءاً بمواشينا
إلى آخر حد تقع للمين عليه . وكنا نختار الطرق
التي بين الجبال حتى لا يرانا أحد فيبلغ أمرنا للبasha
وبعد بضعة أيام وصلنا إلى الحدود الفارسية ولم
يحدث لنا في أثناء الطريق إلا مصاعب تافهة أيسر
مما كنا ننتظر . وكان الفرسان مجتمعين مستعدين
للاقاء الجنود التركية وحررها . ولكن لحسن حظنا
لم تقابل إلا جماعة من الرعاة فأخذنا مواشيهم وأسراهم
ولما وصلنا إلى كرمان شاه ذهب أبي إلى مقر
الحكومة فقابل الوالى وهو أحد أبناء الشاه فطلب
إليه أن يحميه وأن يقطع له أرضاً من أملاكه . وكنا
في انتظار أبي ونحن على أحر من الجمر لأنه كان من
الاحتمال ألا يكتفى الوالى برفض طلبه ، بل يرسل إلينا
جنوداً نحاربنا فنقع بين نارين نار الترك ونار الفرس
ولكن السياسة التي جرت عليها الدولتان كانت

وبابنه وبالنبي وبمجدوده وبالقبيلة الشريفة وبرأس
الشاه وبذقون الأولياء وبالوت الذي سيلافيه وبالمخ
والخبر اللذين أكلهما وبمشهد الحسين وعلى — على
أن القسم بأى عين من هذه الأيمان لا يدل إلا على
أن القائل شديد الكذب وأنه يعتقد أن السامع لن
يصدقته. والذى أفهمه من مسلك الأمير معنا هو أنه
طامع فى الجواد الذى جر علينا كل هذه المصائب
فالفارسيون أشد من الترك رغبة فى الخيل وهم أحرص
من الوهابيين على الاحتفاظ بهذا الجواد لأنهم من
الشيعة، ولو علم الشاه أن لدينا هذا الجواد لأرسل إلينا
فى الحال فهل نريدون أن نحملوا السلاح فى وجه العالم
كله؟ إن لكم رأيكم وأنا خاضع لما تتفقون عليه ولكننى
أحذركم وأقدم لكم النصيحة بأن يكون عندكم مبدأ
عام فى شأن الفرس هو ألا تصدقوهم ولا تتفوا بهم»
وقد أظهر رجال القبيلة اقتناعهم بقول هذا
الناصح المجرب. وفى فجر يوم من الأيام رأينا حركة
غير عادية وسمعنا نباح السكلاب ولسا كنا تعودناه
عندما يحاول الدئاب السطو على الأغنام فقد ظننا
الأمس كذلك فى البداية ولكن أبى وأخى حملا
بتدقيقهما وذهبا إلى الرعى حيث كانت الأغنام
والسكلاب. ورأينا قبل وصولهما إليه فارساً يمدو
ثم رأينا خلفه فارساً آخر ووراءهما سبعة أو ثمانية
من الفرسان، وأخيراً تبين لنا أن خيامنا مطوقة
بالجنود، فصاح أبى ليوفظ رجال القبيلة وجرى نحوه
الفارس الأول ليقتله ولكن أبى أطلق عليه رصاصة
فقتله فى الحال وضرب للفارس الثانى بسيفه فجرحه
وكان صوت الرصاصة والضجة التى تلتها علامة
للجنود التى طوقتنا لتبدأ بالهجوم العام وقد ظهر
أن الفرض من هذا الهجوم هو البحث عن الجواد
لأن أول شيء فعلوه هو التفتيش فى مرابط الخيل
وقد عرفنا أن الفزاة كانوا من الفارسيين وهرفنا

وجوده إذا طلب. ولكن لما عاد أبى من عند الأمير
تبين لنا أن هذا الاحتياط لم تكن تقضى به الضرورة
فإن الأمير أحسن استقباله وقال له إنه لن يقبل مطالب
الباشا مهما كانه ذلك. إن لأبى أن يمان أن الجواد
لديه ويرتكب على حماية الأمير. وقال له: «الطمئن
يا أوخوس! كيف يدعى هذا الأحمق أنك من رعاياه
مع أن مملكة أبى مفتوحة الأبواب لكل لاجئ؟
أليس أبى ملك الملوك؟ أليست حمايته مبسوطة على
كل فرد مقيم فى هذه البلاد؟ إننا لن نكون مسلمين
إذا أسلمناك لعدوك بمد أن استجرت بنا فذهب إلى
خيمتك هادىء البال»

كان لهذا القول رنة فرح بين سامعيه من
الأكراد، ودعا أبى كهراء القبيلة إلى وليمة وعلى أثر
هذه الوليمة عقد منهم مجلساً للبحث فى شئوننا وتدير
خطة للمستقبل، وكان الجميع متفائلين بحسن هذا
المستقبل والاعتباط بحماية الأمير الفارسى إلا رجلاً
واحداً لم يكن لديه ما لديهم من التفاؤل، وذلك هو
عم أبى. وقال إنه يعرف الفارسيين معرفة جيدة وإنه
خدم فى عهد شبابه نادر شاه وإنه لا يجد فى نفسه
شيئاً من الثقة بوعد الأمير. وقال لرجال القبيلة:
«أنتم لم تعاشرُوا هؤلاء القوم ولم تعرفوا عنهم
مثل الذى أعرفه وهم لا يتخذون السلاح الظاهر
كالسيوف والرماح، وإنما سلاحهم الكيد والفس
والخداع والكذب، وأنتم مع شهرتكم بالغلب فى
الميادين لا تستطيعون أن تحاربوهم مثل هذا السلاح،
وإذا وثقتم واطمأنتم فلا تلبثون أن تجدوا أنفسكم
فى حبالهم وقد حاق بكم من كيدهم ما لا تقدرونه
ولا تقدرُونَ على دفعه

إن للكذب يكاد يكون عيباً عاماً فى هذه البلاد
ودليلكم على ذلك أن الرجل منهم لا يكاد يقول جملة
حتى يشغها يمين، فهو يحلف برأسه وبرأس أبيه

لعنة الله عليك وسخرية واستهزاء بلحيثك البيضاء !
ثم أشارت بأصبعها إلى عينيه وقالت : « أنا
أبصق على وجهك ! من أنا حتى تفضل على جارية
قذرة من جوارى منزلي ؟ ما الذي فعلت حتى تهينني
هذه الأهانة ؟ إنك كنت حامل الذكر قبل زواجي
فجعلت منك رجلاً وسهلت لك الطريق لدخول القصر
الملكي والوقوف أمام الشاه وجعلتك رئيساً لأطبائه »
وكان الطبيب في هذه الأثناء يقسم أغلظ الايمان
على براءته ولكن ذلك لم يهدي من غضب الزوجة
ولم يقف تيار سخطها

ثم تركت زوجها والتفتت إلى زينب فأسممتها
كل مؤلة جارحة من القول ولم تكثف بالكلام بل
صارت تجرها من شعرها ومن ثيابها فصارت للفتاة
تصرخ من الألم . ثم أمرت الجوارى بأن ينقلنها
إلى غرفة أخرى فنقلنها وضربنها حتى أدمين جلدها
وكنت أنحرق في هذه الآونة من الاشفاق وحدتني
نفسى بأن أدخل المنزل لانتفاذها مهما كانت النتائج
وأحسست أن دمي صار في مثل حرارة النار ولكن
ما الذي أستطيع أن أفعل ؟ إنني إن دخلت فلن
يكون نصيبها ونصيبى غير الموت . ولما هدأت الحالة
تركت النافذة ومشيت في الطريق حتى ابتعدت عن
المدينة وأنا أدبر خلة لاجراء زينب من هذا البيت
والزوج منها . لكن كيف يمكن ذلك مع بقائى في
خدمة الطبيب وكيف أحصل على الرزق إن تركته ؟ هذا
هو السؤال الذى كان يشغل للتفكير فيه كل خواطرى
وأحسست أن قلبى يدمى كلما فكرت في مصير
تلك المسكينة لأنى سمعت أشياء كثيرة عما يجرى
في الليوت الفارسية وأيقنت أن اضطهاد السيدة لها
لن يخف لا في الحال ولا في الاستقبال

عبد اللطيف النشار

« ينبع »

أيضاً أنهم مرسلون من ق . الرعية .
وكان من سوء الحظ أن
هو رئيسهم وكان ذلك سبباً لا
وكان ذلك اليوم من أيام البؤس
أن أنساها »

ثم أخذت زينب تروى كيف أمر أبوك وكيف
انتقلت من يد إلى يد حتى أصبحت جارية في بيت
ميرزا أحمد ، وكان الزعابى عند سماع قصتها مثل
الزعاجها وهي تروى . ثم سمعت فجأة صوتاً بطرق
الباب فتوجهت إلى أن أسرع بالفرار من النافذة
وكان الذى طرق الباب هو الطبيب نفسه . وذهبت
إلى الباب متحثة .

ولما خرجت من النافذة وقفت أطل منها
ورأيت الطبيب . وقد هال وجهه بالبشر لرؤيته زينب
وحدها بالمنزل ، وقال لها كلمات في نهاية الرقة ثم نظر
إلى باب غرفته فرأى بقايا الطعام فسألها عن سبب
ذلك وقبل أن يستجيب الجواب جلس ودعاها إلى
الجلوس بجانبه وأخذ ي . وعلى حين فجأة دخلت
زوجته ووراءها سائر ال . ففاجأتهما قبل أن
يتفرقا . وإذا نسيت شيئاً . نسى طرفها إليه
ومسلكما الذى سلكته محوه

قالت بلهجة الساخر : « السلام عليكم ، أتعنى
لكما للصحة والهناء وأخشى أن يكون مجيئى
مبكراً قد أزعج راحتكما »

ثم صعد الدم إلى وجهها واسطكت أسنانها
وقالت بصوت يتهدج : « ... من طعام
الافطار في غرفتي أيضاً ؟ ما شاء الله ! ما شاء الله !
لقد أذلتني واحترقني ياسيدى أحمد ! أفى غرفتي وفوق
فراشى ؟ لقد سقطت السماء إلى الأرض ! هل تعد
نفسك بعد الآن رجلاً بين الرجال ؟ ألا تنجل حين
يدعونك الناس طبيباً وحين يلقبونك بلقمان عسرك ؟